

سياسة عائلة آل برقة القرطاجية في إسبانيا

(237-205 ق.م)

أ/ نور الدين كريمة

قسم التاريخ- جامعة الجزائر2

ملخص البحث:

عرفنا دائماً قرطاجة من الخارج كأمبراطورية تجارية تسيطر على البحر الأبيض المتوسط، دون أن نغوص في دراسة هذه الأمبراطورية من الداخل، لنكتشف أنها رغم الواجهة البراقة، كانت تعاني من الكثير من الثقائص، التي كان يجب علاجها لتمكّن من الوقوف في وجه روما، التي كانت تسعى للسيطرة وفرض هيمنتها على البحر الأبيض المتوسط، وهو ما سعى إليه آل برقة بالتوسع في إسبانيا بعيداً عن أنظار روما المنشغلة في سيردينيا وغالة- ما قبل الألب، ويخدم أهداف الأوليجارشية الحاكمة من آل حنون.

Abstract (Résumé):

On à souvent connu Carthage comme empire Commercial dominant la mer méditerranéenne. Sans qu'on ait étudié profondément cet empire de l'Interieur et decouvert que cette façade brillante souffrait de beaucoup d'insuffisance qu'elle devait résoudre pour qu'elle puisse tenir face à Rome qui était entrain de s'imposer en méditerranée.

Ces insuffisances que les Barcides essaient de résoudre par la conquête de l'Espagne, loin des regards de Rome occupée en Sardaigne et la Gaule Cis- Alpines, Ce qui servit aussi les intérêts de l'oligarchie des Hannouniens.

الكلمات المفتاحية:

آل برقة، إسبانيا، قرطاجة، روما، آل حنون.

عرفت قرطاجة في تاريخها الطويل عدّة عائلات لعبت دوراً سياسياً كبيراً منها العائلة الماقونية التي نعرف منها عالم الفلاحة الشهير والعديد من القادة وعائلة آل حنون خصوم آل برقة، إذ كانت الأولى تمثل مصالح الأرستقراطية بينما تمثل الثانية إلى الدّفاع عن العامة.

هكذا كان التّنافس بين العائلتين، في الواقع ناتجاً عن اختلاف مصالح الطبقتين حول مواصلة الحرب ضدّ روما من عدمه، بعد التّسايح التي آلت إليها الحرب البونيقية الأولى (264 - 241 ق.م)، التي قبل بها آل حنون والأرستقراطية التي أنهكتها الحرب، بينما رأى فيها آل برقة إذلالاً لقرطاجة، وبذلك جاءت معاهدة 238 ق.م، التي تنص على تخلي قرطاجة عن كورسيكا وسردينيا على إثر ثورة هذه الأخيرة على قرطاجة مع فرض غرامة إضافية على قرطاجة، لتحبي روح الاعتزاز الوطني لدى البونيقين الذين شعروا بالظلم الصارخ، واقتنعوا باستحالة أيّ اتّفاق دائم مع روما، التي تتماذى في إذلالهم، وتسعى إلى السّيطرة على غرب المتوسط، وفي ذلك دعم لموقف آل برقة، (Bordet M., P. 69).

هكذا تكون روما قد دعمت "مخطّط" آل برقة، إذا افترضنا أنّ هناك مخطّطاً بناء على ما تؤكّده مصادرنا التي لا تتردّد في الإشارة إلى كُره ورغبة آل برقة في الانتقام، ممّا جعلهم يسعون إلى التّوسّع في إسبانيا لإعادة بناء قوتهم بعيداً عن أنظار روما من ناحية أو عراقيل آل حنون من ناحية أخرى، وهم الذين يميلون إلى إطلاق يد روما في البحر الأبيض المتوسط والاكتفاء بالتّوسّع على حساب الجيران الّلبيين"، (Warmington G. H., 1961, P. 69).

هذا المخطّط الذي يسعى هاميلكار إلى تنفيذه، يكون قد صمّم بكلّ تفاصيله حسب البعض، فالصرامة والاستمرارية في التّنفيد لا يمكن تفسيرها حسب هؤلاء أبداً، لو كان صاحبها يرتجل، ويحلّ المشاكل المطروحة تدريجياً.

كان يهدف هذا المخطّط إلى معالجة التّقائص التي حالت دون الانتصار في "حرب صقلية" (2) (Gsell St., 1913, P. 32)، وأوّل تلك التّقائص "هشاشة الاقتصاد القرطاجي

الذي لم يتمكن من تحمّل تكاليف الحرب، ثانيهما النظام الأوليجارشي الذي يُخضع القادة، لأرستقراطية "أثنية" لا تهمّها غير مصالحها أو تجنّباً للمساهمة في المجهود الحربي وتميل في معظمها إلى "الوفاق" مع روما دون أن ننسى الاعتماد على المرتزقة الذي يعدّ أكبر تلك الثّقافات (Combet F., 1960, P. 62).

حلّ تلك المشاكل والقضاء على هذه الثّقافات، فكّر هاميلكار في إسبانيا، لما تقدمه من مزايا اقتصادية، يمكنها تموين مختلف قطاعات الاقتصاد البونيقي بما تتوفّر عليه من ثروات معدنية "مناجم الفضة" في سيرامورينا، وثروات نباتية وحيوانية، يمكنها أن تساهم في التهوض بالأسواق القرطاجية، إلى جانب تلك الثروات يمكن لبعيد إسبانيا أن يجعل "القائد" بعيداً عن مؤامرات ودسائس الأوليجارشية في قرطاج، إذ كان الثّجار ورجال المال يناورون لإخماد الرّوح العسكرية، ومحاولة توجيه الأنظار إلى الأقطار الإفريقية، وترك المجال مفتوحاً أمام "روما"، في الحوض الغربي للبحر المتوسط، تجنّباً للاصطدام معها ثانية، وما يترتب على ذلك من ركود تجاري وبالتالي خسائر، وهو ما يجعلنا نميل إلى اعتبار موافقة آل حنون على غزو إسبانيا أنّ الهدف منه لا يعدّ تأييداً لسياسة آل برقة، بقدر ما يعدّ طمعاً في الاستفادة من الاستثمار في مواردها المنجمية من ناحية وإبعاد آل برقة عن قرطاج، بل وعن روما حتى لا يثيروا شكوكها، بمشاريعهم الحربية، التي تعدّ في نظرهم عرقلة لمصالح آل حنون الاقتصادية (Tite Live, 1930, XXL, 3, 5).

هكذا نلاحظ أنّ اختيار إسبانيا كان يستجيب لاحتياجات هاميلكار، فضلاً عن الثروات الطبيعية والمنجمية والكثافة السكانية، فهو بلد بعيد عن إيطاليا وبالتالي لا يثير "قلق" مجلس الشيوخ بما يجري فيها من أحداث، فهاميلكار يريد صرف نظر روما حتى لا تتدخل وتعرقل أعماله وهي في بدايتها (Melet A., Isaac J., 2008, P. 19).

إذ كان هذا الاختيار يستجيب لاحتياجات هاميلكار، فإن ذلك تمّ عن معرفة ودراية بشأن إسبانيا التي تردّد الفينيقيون عليها منذ أواخر القرن الثاني عشر،

فالأثار والنصوص تشير إلى تعامل الفينيقيين مع مملكة ترشيش منذ القرن التاسع على الأقل أي حتى قبل تأسيس قرطاجة، كما تم إقامة عدة محطات فينيقية على سواحل شبه الجزيرة، أهمها وأشهرها محطة قادس" (Guilia M., 2008, P. 19)؛ الصغير غانم م.، 2003، ص. 241)، التي كانت تربطها علاقات وطيدة مع قرطاجة، هذه الأخيرة التي كانت لا شك تقدم لها يد العون لمواجهة السكان الأصليين وصدّ الإغريق خاصة بعد تأسيس ماتسالوم (مارسيليّا) التي أرادت بدورها الاستفادة من خيرات إسبانيا (Fathi A., 2007, P. 51).

كان الماقونيون، قد فرضوا الاعتراف بهيمنتهم على الفينيقيين في أقصى الغرب، وكونوا بعض الكونفيدرياليات التي سمّاها شولتن الإمبراطورية القرطاجية الأولى في إسبانيا، إن هذه الإمبراطورية أو بالأصحّ الكونفيدرياليات، قد اندثرت مع الأسرة التي أسستها حوالي منتصف القرن الرابع (Gillbert Charles P., 1960, P. 81).

إذا كنّا نعرّف أنّ الماقونيين قد قاموا بهجوم كبير على طول السواحل الشرقية وأبعدوا نهائياً الإغريق إلى الشمال من كتالونيا، وخرّبوا عدداً كبيراً من الحصون الإيبيرية، لكن لم يتمكّنوا أبداً من فرض سيطرة دائمة، فالأثار تُبيّن أنّه لم يكن هناك أية مستوطنات "بونيقية" في إسبانيا قبل الفتوحات البرقية، فالمدن التي أسسها الفينيقيون لم تحتفظ فقط باستقلالها السياسي، لكن حتى بالعادات الثقافية المختلفة نسبياً عن عادات قرطاجة، وظلّت حتى تتعامل تجارياً مع الإغريق رغماً عن المعاهدات، فالمنطقة الوحيدة التابعة لقرطاجة هي جزيرة إيبيزا في أرخبيل البليار التي استولت عليها منذ 654 ق.م، فاللقى الأثرية المكتشفة، تختلف كثيراً عن التي نجدها في إسبانيا، وتحتوي أدوات قرطاجية فعلاً (Gilbert Charles P., 1960, P. 81).

ويمكننا تقسيم شبه جزيرة إيبريا في ذلك الوقت إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: يتألف من المناطق الممتدة على طول السواحل الجنوبية والشرقية، فكانت مناطق عامرة، تحتوي على عدد كبير من المدن، كما كان سكّانها خليطاً من الفينيقيين، والإغريق، والإسبان.

أما القسم الثاني فهو وسط إسبانيا، حيث كان الغاليون الأوائل قد امتزجوا مع السّكان المحليّين، ليشكّلوا مجتمعا قبليا من الفرسان والمحاربين الأشداء، مجتمعاً متقلّبا بين التّقضين، وحسب تعبير البعض الصّدّاقة والعداوة.

أما القسم الثالث: فقد كانت تسكنه أحدث الهجرات الغالية، التي لم تكن قد امتزجت بعد ببقية السّكان، وقبائل هذا القسم على جانب كبير من القوّة والبسالة، فلم يكن من السّهل إخضاعها (صفا م.، 1987، ص. 80).

إذا استثنينا قبيلة ساحلية واحدة التي تعيش في منطقة "مالاقا" والتي كانت قد تبنت اللّغة الفينيقيّة، فإنّ باقي الأهالي، كانوا أبعد ما يكونون عن القبول بالهيمنة البونيقيّة، فإنّ هذه القبيلة الباستولو-بوني (Bastulo-poeni) كما يسمّيهم الرّومان، هم المنحدرون من الترشيّشين (Tartessiens)، الذين كان ملكهم أرقانثيوس (Arganthonius)، قد استقبل في القرن الثامن الملاحين الفينيقيين والإغريق (تسيركين ي.، 1987، ص. 63).

إلى جانب هؤلاء الباستولو-بوني، نجد شعبين آخرين يتقاسمان معهم إرث هذه المملكة الثريّة هما: التورديتان (Turdetans) من حوض الوادي الكبير والباستيتان (Bstitaïne) من منطقة غرناطة، فالآثار التي عثر عليها في هذه المناطق تدلّ على حضارة راقية في جنوب إسبانيا في هذه العصور الغابرة (Strabon, 1870, III, 2, 3)، هذه المناطق وهذه الشعوب هي التي سبق للفينيقيين ومن بعدهم البونيقيون التّعامل معها، لكن في عصر هاميلكار، كان يجب الصّعود إلى الشّمال للعثور على المراكز الهامة للحضارة الإيبيرية من سيرانيفادا إلى هيروا (Herault)، حيث نجد أمة حية متجانسة، تسيطر على كلّ ضفاف المتوسّط، تعرّفنا عليها في فترة متأخّرة نسبيا في القرن الخامس قبل الميلاد، وتظهر باستخدام لغة وكتابة مشتركة، لسانهم غير معروف جيّدا، ويفهم بصعوبة يبدو ذا قرابة للغة الترشيّشين ومن جهة أخرى لهذه اللّغات البيريني - كتابريك التي ما زالت تبدو في الباسكية (Almagrabasch M., 1965, P. 87).

ومن الناحية الاجتماعية، نجد ما يشير إلى حياة ثرية لمجتمع إقطاعي، كان النشاط فيه يوزع بين الحرب، الفروسية، الصيد، والصيد البحري، والتسليّة التي ضمنها سباق الثيران، الأكثر شعبية والتي ما زالت آثارها بادية على حياة الإسبان الحالية.

هذا الثراء الاقتصادي والاجتماعي، لم يواكبه تقدّم في المجال السياسي، إذ ظلّ أغلب الإيبيريين يعيشون في قرى محصّنة، يهيمن عليها بارونات (أسياد) يدخلون في صراعات مع الجيران، وأحياناً يخضعون لسيد أقوى، وهكذا تتشكّل الكونفيدريالات، وإن كانت تمتدّ على مساحات واسعة، فهي كانت هشّة، سرعان ما تنطفئ برحيل مؤسّسها.

كانت الظروف أصعب في الهضاب العليا الداخليّة، مجال القبائل الكتليّة المختلطة تقريباً بالإيبيريين في الجزء الشرقي لشبه الجزيرة، أمّا الكتليون، فهم يعيشون نفس الحياة مع أمثالهم الذين يقطنون في شمال جبال البيريني: أسلحتهم وحليهم تنتمي كلّها إلى حضارة واحدة (Gilbert Charles P., 1960, P. 83).

تلك هي مناطق وشعوب إسبانيا التي كان على هاميلكار مواجهتها، ومن حسن حظّه أنّ الأهداف الأساسيّة لتحقيق مخطّطه لم تكن في أيدي الشعوب الأكثر خطورة وشراسة، فمناجم الذهب والفضة في سيرا مورينا مصدر ثراء ترشيح كانت غير بعيدة عن قادس التي قبلت إرادياً استقبال الجيش البونيقي وقائده (Salluste C. C., 1962).

بدأ هاميلكار من قاعدة "قادس" المفاوضات التي ستضمن له بسرعة انضمام شعوب: الباستان (Bastetans)، دون مقاومة، لكن كان عليه محاربة التورديطان (Turdetans) أو بالأحرى القبائل الكتليّة الغنيّة المجاورة لهم من ناحية الشمال (Strabon, 1870, III, 2, 14).

انتهت هذه المرحلة بداية من سنة 236 ق. م، فشرع هاميلكار في تنظيم استغلال المناجم وفق قواعد جديدة، سك عملة جديدة من الفضة الجيدة التي

عوضت "الشقالات" التي جلبها من قرطاجة، ورغم ما يشاع عن عمل هاميلكار لضمان استقلاله الاقتصادي وحتى السياسي عن قرطاجة بتأسيس إمبراطورية في إسبانيا (Appien, 2002, VI, 4-6)، غير أننا نلاحظ هاميلكار يوجّه شحنات من المعدن الثمين إلى قرطاجة، كانت كافية لاحتياجات قرطاجة في تقويم الأجور وخدمة الغرامة الحربية، وبعث الحركة الصناعية والتجارية بعد أن تمّ صرف ما تبقى من أموال في الحملة (Guirand, Lacour- Payet G., 1885, P. 105)، واستطاع بذلك أن يعيد التوازن عند الأرستقراطية البونيقية بين الملاحين أو رجال المال وأصحاب الضيعة.

بعد هذه المرحلة وتلك النتائج المحققة، كان على هاميلكار مهاجمة الديتان (Deitans)، البلاد ثرية لكنها جبلية وتمتدّ حتى مصبّ نهر جوكار (Jucar)، ممّا تطلّب منه أربع سنوات لإخضاعها (231-235 ق.م)، ولمدّ العمليات نحو الشمال، كان لا بدّ من نقل مركز القيادة من قادس إلى أكرالوكي (الرأس الأبيض)، ومن هنا وجّه أنظاره نحو الدّاخل بعد أن أخضع شعوب السّاحل (جوليان ش.، 1969، ص. 100).

أثارت انتصارات هاميلكار برقة مخاوف مارسيليا التي نبّهت "روما" التي لم تكن تأبه بما يجري في إسبانيا البعيدة فضلا عن انشغالها، فأرسلت روما بعثة إلى إسبانيا سنة 231 للتّحري ممّا يجري في هذه النّاحية البعيدة، وقد استقبل هاميلكار البعثة استقبالا حسنا، وتمكّن من إقناعها، أنّ الهدف من تلك العمليات هو تأديب تلك القبائل الإسبانية، التي تعتدي على التّجار البونيقيين وبالتالي تحوّل دون تسديد الغرامة الحربية المنصوص عليها في المعاهدة مع روما (Mommsen Th., 1872, P. 120).

وفي شتاء 229 ق.م، استأنف هاميلكار فتوحاته نحو الدّاخل، لكن إيبيري ميزيتا المختلطين بالكلت أو الذين درّبوا من طرفهم، وتمرسوا عنهم، ظهوروا كخصوم أشداء، إذ تمكّنوا سنة 229 ق.م من محاصرة القوات القرطاجية التي لم تأخذ كامل احتياطاتها، عندما همت بمهاجمة حصن لم يكن يبدو صعبا ورفض دفع

الجزية، فكان هاميلكار قد ترك أحسن قواته مع كلّ الفيلة لصهره أصدوبعل الكبير، لكن فجأة تعرّض المعسكر القرطاجي للحصار من طرف الأوريتانيين (Oritans) الذين تظاهر ملكهم هيليكي (Diodore de Sicile, 1834, XXV, 10, 3) بالتفاوض مع هاميلكار الذي كان في وضعية صعبة، فقبل بالاتفاق، فأخذ طريق العودة عبر الساحل متبعا لنهر جورا، وفي فج حيث يلتقي الطريق مع النهر حوصرت قواته، وتمّ إبادة المؤخّرة بسرعة، وعندما حاول هاميلكار المعزول الالتحاق بقواته بالضفة الأخرى للنهر، ارتقى بفرسه في مجرى النهر، لكن السيول جرفته، وتوفى (Justin, XL).

- خلافة هاميلكار:

مقتل هاميلكار خلف وضعية صعبة، فلم يكن من السهل تعيين خليفة له، خاصة أن الجنود كانوا قد حصلوا خلال حرب المرتزقة، على حق اختيار قائدهم، وهو مكسب لا يمكنهم التنازل عنه بسهولة (Diodore de Sicile, 1834, XXV, P. 12)، وقد يكون للجانب البسيكولوجي أيضا تأثير عليهم، فانتصارات هاميلكار خلال الثماني سنوات الفارطة، لم تكن نتاج موهبته فقط، لكن للعناية الإلهية، وهذه العناية كانت وراثية في نفس العائلة، فالجيش لا يمنح ثقته إلا لقريب هاميلكار، لكن الأبناء الثلاثة، رغم أنهم برهنوا لا على شجاعتهم المبكرة فقط، بل وعلى سلطتهم وإستراتيجياتهم، إذ تمكّنوا بعد وفاة والدهم من جمع قدامى المحاربين وردوا قوات العدو وعادوا بباقي الجيش إلى أكرالوكي، ولكن مع ذلك لم يكن ممكنا تسليم المسؤوليات السياسية وكذا العسكرية لأحدهم نظرا لصغر سنّهم (Polybius, 1970, III, 1, 29- 30). وهو ما جعل الخلافة تعود لصهرهم وزوج اختهم أصدروبعل الكبير الذي أصبح بعد أن رافق هاميلكار لعدّة سنوات الرّجل الثاني في الحكومة العسكرية بإسبانيا، فمهمّته كأمرال لم تمنعه من قيادة القوات البرية، فاكسب خبرة في المجال العسكري، فضلا عن تجربته السّابقة في العمل السياسي كمناضل في العصبة الديمقراطيّة وهو ما مكّنه من علاقات لا شك أنّها

ذات فائدة سواء للقبول به في العاصمة "قرطاجة" أم إعطاء شكل نهائي ومؤسسات لهذه النواة التي فتحها هاميلكار في إسبانيا (Mommson Th., 1872, P. 118).

ورغم أنّ أوّل عمل قام به أصدروبعل هو الانتقام من القبائل الأوريتانية لمقتل أصدروبعل، لكن يبدو من المعاصرين أنّه كان يميل إلى استعمال أساليب سلمية، فكان يصل إلى أهدافه بالمفاوضات مع القبائل الإسبانية أكثر من اللّجوء إلى استخدام السّلاح، واستطاع بتلك السّياسة أن يوسّع من نفوذ العائلة البرقية في شبه الجزيرة الإيبيرية.

إذ عمل على مساعدة الأمراء الأكثر حيوية، بجمع - تحت سلطتهم - مجموعة من القبائل والقلاع، هذه الوحدات التي تجمع في وحدات فيديرالية وطنية جعل هؤلاء الأمراء الرّابطة بين آل برقة ومجتمع الأهالي، فقام أصدروبعل باستدعاء رؤساء تلك الفدراليات، وانتخب كقائد أعلى من طرف "مؤتمر الأمراء".

إذا كان هذا الانتخاب لا يضيف شيئاً إلى السّلطات التي منحها إياه الجيش، ولا إلى الشّرقية التي حصل عليها من مجلس الشيوخ بقرطاجة، لكنّها تغيّر طابع السّيطرة في إسبانيا من "قائد أجنبي غاز" إلى "قائد وطني" من دولة استعمارية إلى دولة مرتبطة ومستقلة في المبدأ، فيبدو أنّ أصدروبعل فهم جيّداً طابع هذا الشعب الذي يعيش الحرّية والاعتزاز، فأراد جني الفوائد بأقلّ الأضرار، فهكذا قبل فضّ المجلس، حدّد الضريبة التي ستدفع من كلّ شعب، ودعوة الرّؤساء إلى ترك عضو من عائلتهم ليتكفّل أصدروبعل الكبير بتربيتهم وتنشّتهم على الحياة الحضريّة، وفي الواقع ضمان إخلاص ذويهم (Polybius, 1970, III, 15, 8).

وبعد وفاة قريبته -ابنة هاميلكار- تزوّج من ابنة أحد رؤساء القبائل الإسبانية، وبذلك استطاع أصدروبعل دعم هذا الدّومنيون والاستيلاء معنوياً على الإيبيريين، وأكسبه شعبية واسعة، إذ أعطى له هذا الزّواج الشّرقية في نظر الإسبان (Diodore de Sicile, 1834, XXV, 12).

بعد هذه الإنجازات التي ضمنت له ولاء الإسبان سلمياً، تفرغ للعمل الفاصل الثاني الذي يوجّه سياسته وهو تأسيس عاصمة له.

فأسّس مدينة قرطاجنة سنة 227 ق.م، على السّاحل الجنوبي الشرقي لإسبانيا، بالقرب من المناجم الغنيّة جدّاً بالفضّة، والسّهول الغنية بالغلّال الزراعيّة، وعلى حافة مرسى محمي بشكل جيّد، الشيوخ البونيقيون الذين حضروا الافتتاح رأوا في هذا الإنجاز عملاً يستحقّ الثناء والمدح خاصّة أنّ أصدروبعل زوّد المدينة بمراكز صناعيّة ذات أهميّة كبيرة: أنشأ ورش صناعة السفن، وداراً لضرب العملة ومصانع يعمل بها ما لا يقلّ عن ألفي عامل من كلّ الحرف، كما حصّنها بأسوار عالية ومنيعّة، ومعابد، لكن يبقى المبنى الأهمّ، هو قصر ملكي هائل ممّا يسمح لنا بالقول إنّ أصدروبعل عاش وفق بروتوكولات الملكيات الهلنستية (Gilbert Charles P., 1960, P. 87).

إطلاق اسم قرطاجنة على المدينة التي أنشأها أصدروبعل في إسبانيا أثارت حفيظة بعض المؤرّخين الذين شبهوا الاسم باسم قرطاجنة، ممّا يدعم في رأي هؤلاء فكرة الرّغبة في الاستقلال عن الوطن الأمّ، لكن فورين (M. Forren)، يرى أنّ قرط-حدثت يعني شيئاً آخر غير المدينة الجديدة المتداول عند المؤرّخين، ويعطي لـ "قرط" معنى "العاصمة"، ويكون بالتّالي أصدروبعل قد أنشأ عاصمة جديدة، وهي التي سمّاها الرّومان قرطاجنة- الجديدة «Carthago-Nova»، تميّزها لها عن قرطاجنة (Tite Live, 1930, XXVI, 51, 8).

إنّ ديانة آل برقة التي انتشرت في إسبانيا هي خليط من المعتقدات الفينيقيّة، والإغريقيّة والمحليّة، وتعدّ أقلّ تعصّباً في قضية سمو الإله من المعتقدات البونيقيّة، رغم أنّهم حافظوا على سمو شمين، لكن تبدو أكثر إنسانيّة، وخالية من التّعصّب الذي يحمله عباد بعل-حمون إله قرطاجنة الكبير، هذا الأخير لم تبعد عبادته في إسبانيا، فقد كان له معبده، بجانب معبد ملقرت في قادس، وقد كرّس له أصدروبعل معبداً ثانياً على أحد التلال التي تطلّ على قرطاجنة في الوقت الذي كرّست فيه هضبتان

آخرين، إحداهما لآلهة المناجم "كسور" والأخرى للأبطال الذين اكتشفوا سابقا الثروات المعدنية في الجبال الإيبيرية (Gilbert Charles P., 1960, P. 88). ومع ذلك نلاحظ أن بعل حمون لم يكن له مكان في بانثيون الجيش الذي كان من عصابة آل برقة، كما لم نجد أثرا لعبادة "ثانيت" خارج إيبيزا.

إذا كان آل برقة قد ارتكزوا على الجيش والدين في دعم سلطتهم، فإن القوة الاقتصادية بدورها لعبت دورا بارزا في تثبيت تلك السلطة، وأساس هذه القوة الاقتصادية يستمد من مناجم سيرامورينا التي ضمنت لهاميلكار الاستقلال الاقتصادي بعد ستين تقريبا من النزول في إسبانيا، ولتأكيد هذا الاستقلال سك عملته الخاصة التي أصبحت بفضل نوعية العيار "أداة تبادل في كامل إسبانيا.

وكنا قد أشرنا سابقا إلى عمل أصدر وبعل على جعل قرطاجنة مركزا اقتصاديا هاما بما أنشأ فيها من معامل وورشات لمختلف الأنشطة، حتى يتجنب اعتماد الاقتصاد على استخراج المعدن الثمين فقط (Tite Live, 1930, XXVIII, 3,3).

يبدو من مصادرنا أن عمال تلك المصانع والورش كانوا من العبيد، كما كان عمال المناجم من الأرقاء، وكان الجميع خاضعين لنظام قاس (Diodore de Sicile, 1834, V)، وقد لا يكون وضع عمال الأرياف أحسن حالا من عمال المناجم، فالنصوص والنقوش اللاتينية السابقة بقليل للاحتلال الروماني، تؤكد على وجود قرى للأقنان، أغلييتهم كانوا ملكا لآل برقة، أو لأعضاء الأرستقراطية البونيقية، لأن هاميلكار ومن بعده أصدر وبعل كانت لهما قدرة على إشراك البعض من مواطنيهم في الفتوحات بشكل واسع، فقد ظل إلى جانبهم بعض أعضاء مجلس الثلاثين ومجلس الشيوخ، وظلوا يشكلون مجلس أركانهم، فيكون هؤلاء قد استولوا على ضيع واسعة، شغلوا عليها هؤلاء الأقنان.

هكذا كانت موارد قرطاجنة المستقلة عن موارد الحكومة البونيقية وبعيدة عن مراقبتها، وقد تزايدت هذه الموارد بفضل نشاط هاميلكار ومن بعده أصدر وبعل حتى أصبح المعين الذي تعتمد عليه قرطاجنة لمعالجة أزماتها وإنعاش اقتصادها،

وأصبحت قرطاجة بذلك تابعة اقتصاديا لقرطاجنة وخاضعة لمراقبتها (Gilbert Charles P., 1960, P. 83).

يكاد يتفق المؤرخون على أن فتح إسبانيا من طرف هاميلكار ما هو إلا مرحلة نحو الانتقام من روما، مع ذلك، روما تركته يعمل دون أن تحرك ساكنا، لمدة ست سنوات (237-231 ق.م)، وذلك لانشغالها في الفترة ما بين (240-227 ق.م) بكورسيكا وسيردينيا وليقوريا وغالة ما قبل الألب، ورغم تنبيه الفوسيين لروما التي أرسلت بعثة دون جدوى، ما دام هاميلكار عرف كيف يقنع البعثة بالادعاء أن الهدف من تلك التوسعات هو الالتزام بدفع مستحقات روما (Sir Gavin de Beer, 1955).

لكن بمجرد اجتياز محنة الغالين بالانتصار عليهم قرب رأس تيلامون سنة 226 ق.م، وجهت روما اهتماما فجأة نحو إسبانيا، وحصلت من أصدرويل على اتفاق يمنع القوات البونيقية من اجتياز نهر الإيرو (Gilbert Charles P., PP. 747-62).

معاهدة الإيرو 226 ق.م:

يضع بوليبيوس "روما في موضع الطالب للمعاهدة- ربّما- اعتقاداً منه مثلما يعتقد الكثير من الباحثين أن قرطاجة هي المستفيدة من المعاهدة بدعوى أن المعاهدة سجّلت انتصارا معنويا لقرطاجة، بالاعتراف بوجودها في إسبانيا (أرنولد ي.، 1985، ص. 318)، والواقع أن أصدرويل هو المتنازل، مما يجعلنا نفترض أن بوليبيوس تمّ تغليطه، لتحميل حنبعل كلّ مسؤولية الحرب البونيقية الثانية، ودفعه إلى الاعتقاد أن الاتفاق تمّ بين طرفين متساويين، وأن "روما التي تعترف بإمبراطورية آل برقة في إسبانيا، كان هدفها هو ضمان أمن روما فقط، في الوقت الذي يمكننا أن نرى في المعاهدة إملاء حقيقيا، بهدف وضع حدّ في أقرب وقت للتوسّع البونيقي في إسبانيا (Carcipino G., 1953, PP. 258-93).

هكذا وجدت روما نفسها، تتدخل صراحة في إسبانيا أو لم يعد بإمكانها التّغاضي عما يجري بها، فأرسلت سفارة ثانية إلى أصدرويل سنة 226، تحمل

نص معاهدة أُعدَّ مُسبقاً بمساعدة الفوسيين والصاغثيين، يبدو أنه لم يتركوا له غير الاختيار بين الموافقة عليه أو رفضه، وتنصّ المعاهدة على: "منع القوات البونيقية اجتياز نهر الإيبرو إلى الشمال". هذا النهر هو أكبر نهر في إسبانيا الشرقية.

وإذا كان الهدف من هذه المعاهدة هو حماية صاغثوم، فإنّ هذه المدينة تقع على بعد مائة وثلاثين (130) كيلومترا إلى الجنوب من هذا النهر، ممّا جعل جيروم كاركوبينو يفترض وجود نهريّن يتشابهان في الاسم إيبيروس (Iberus) الشمال وهو نهر الإيبرو (Ebre) والجنوب وهو نهر جوكار (Jucar)، فيكون هذا الأخير هو الذي فرض كحدّ في معاهدة 226 ق.م، وممّا يدعّم هذا الرأى أنّ أبيانوس (Appien, 2002, VIII, 6, 23-24) وضع بوضوح صاغثوم إلى الشّمال من الإيبروس (Iberus)، ويوافقه بوليبيوس الرأى عندما يتعرّض لأسباب الحرب البونيقية الثانية (Polybius, 1970, III, 30).

إذا أخذنا بهذا الرأى، فإنّ ذلك يمنع كلّ توسّع جديد لآل برقة في إسبانيا ما دام هاميلكار، كان قد وصل قبل ذلك إلى ضفاف الجوكار، وتوفي وهو يحارب المقيمين على ضفافه، كما يمنع أيضا ضمّنا استعمال السّلاح ضدّ القبائل الإيبيرية المشاركة في مؤتمر سنة 229 ق.م، التي تتملّص من تبعيتها لآل برقة (Polybius, 1970, VIII, 6, 23- 26).

إذا كان أصدروبعل قد أمليت عليه شروط معاهدة الإيبرو، وعرف كيف يتملّص منها، ويتجنّب الاصطدام بروما بدبلوماسية المعهودة، فإنّه بالمقابل عرف كيف يثير الخصوم لروما في شبه الجزيرة الإيبيرية، ففي هذه الفترة أسّس أنديبيليس (Indibilis) وإيدكون (Edecan) مملكتيهما بدعم من البرقيين، ولم يبق بالتالي أصدروبعل مكتوف الأيدي أمام إملاءات روما إن صحّت، بل أكثر من ذلك توصل حتى إلى إثارة التوبولتسين (Tubolètes) جيران صاغثوم الذين انضمّوا إليه، وتمكّن من كسب أنصار له في المدينة، تمرّدوا على الحكومة الموالية لروما (Gilbert Charles P., 1960, P. 97).

هذا العمل الدبلوماسي لأص드로بعل جعل بعض الباحثين يسندون إلى أعوان البرقيين مسؤولية كبيرة في ثورة الغالين على روما، بأن يَبْنُوا لِقَبَائِلَ ما قبل الألب ضرورة الأُتْحَادِ ضِدَّ العَدُوِّ المُشْتَرَكِ، وحرَضُوا كُونكُولِيْطَان (Cancolitan) وأنيروست (Aneroeste) لاجتياز الجبال، ويكون توزيع القَوَاتِ الرُّومانية في ربيع 225ق.م دليل هذا التواطؤ البونيقي- الغالي.

وإذا كان البعض يُلومُ أصدروبعل على عدم التَّدخُّلِ -عسكريا- في هذا الصِّراعِ الرُّوماني- الغالي الذي كان التَّدخُّلُ فيه سيمنع ريغولوس من نقل فرقهِ إلى بيزا ومهاجمة الخصم من الخلف، لكن إذا كان البعض يعيِّون فعلا ذلك على أصدروبعل، ويعتبرون تصرفه نقصاً جِراً، فلا شكَّ أنَّ أصدروبعل، كان أدري بواقعه، إذ لم يكن بمقدوره التَّدخُّلُ إلَّا عَبرَ البحر، والحال أنَّه رغم بنائه لترسانة قرطاجنة، فلم يكن بمقدور الأسطول البرقي مواجهة روما في البحر، فلم يكن في وضع لاسترجاع السَّيَادَةِ بعد، فأصدروبعل الذي عمل أميرالا لهاميلكار كان في وضع أفضل لإدراك هذه الحقيقة، ممَّا يجعل أيَّ تَدخُّلٍ يعدّ مجازفة بمكاسب العديد من السَّنَوَاتِ.

هكذا واصل أصدروبعل دبلوماسيته في التَّعامل مع سكان شبه الجزيرة الإيبيرية، لكن أمير من الكلث -إسبانيين- كان يعارض تَدخُّلَ آل برقة أو حسب تعبير البعض الآخر دسائس ومكائد آل برقة، فتمَّ اغتياله أو بناء على سيلبوس إيطاليكوس، تمَّ اختطافه، وصلب في قرطاجنة، لكنَّ أحد المخلصين للرَّجُلِ تمكَّن من دخول قرطاجنة، ووصل إلى أصدروبعل وطعنه بخنجر طعنة قاتلة في بداية 221ق.م (Diodore de Sicile, 1834, XXV, 12).

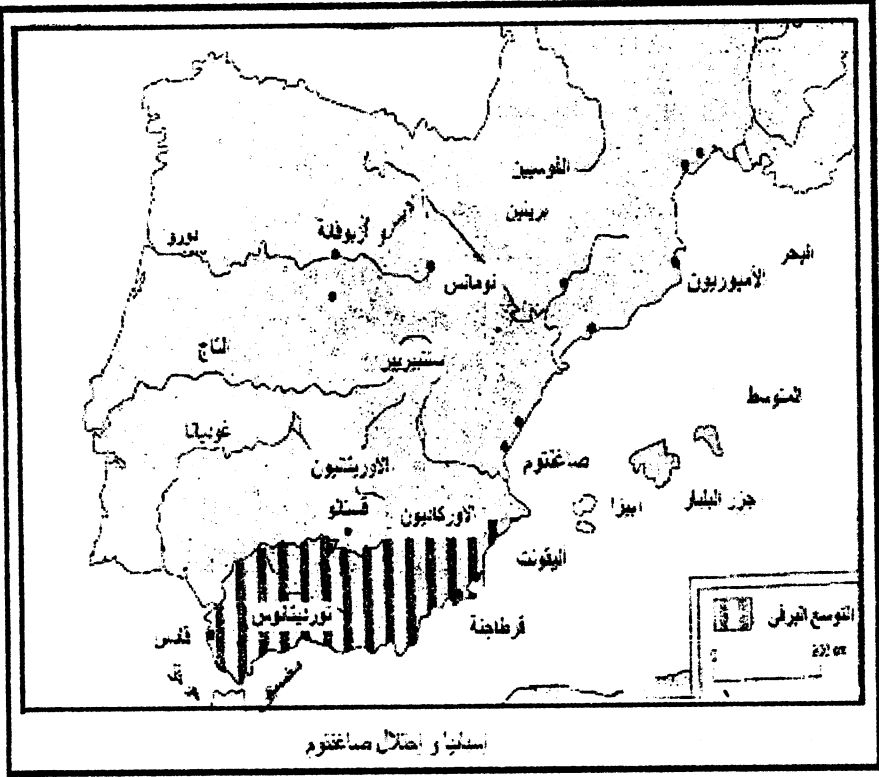
بمقتل أصدروبعل، قام الجيش بانتخاب حنبعل قائد الفرسان منذ ثلاث سنوات دون انتظار رأي السُّلْطَاتِ في قرطاجنة، وقد يكون حذر أصدروبعل هو الذي أثار حماس قدامى المحاربين الذين رفعوا حنبعل عالياً، ورغم أنَّ قرطاجنة صادقت على قرار الجيش، إلَّا أنَّ إيبانوس يؤكد أنَّ حُزْبَ آل حنون، ثار بقوة وتمكَّن حتى من

مقاضاة العديد من الأعضاء المؤثرين من حزب آل برقة (مصروعة ج.، 1960، ص. 154)، مع ذلك يبدو أن أغلبية الشعب والشيوخ ظلّوا يساندون حنبعل (Cornilius N., 1841, III, 3.1).

إمبراطورية آل برقة الإسبانية هذه التي يرى بعض الباحثين أن هاميلكار لم يعتبرها أكثر من أداة ووسيلة لخدمة "مخطّطه الكبير" وهو الثّار من روما، ابنه بدوره بعد أن يجتاز البرانس والألب، لا يفكر في هذه الإمبراطورية إلاّ من أجل الحصول على الرّجال والمال (Azidine B., 1841, P. 25)، ويكون بالتالي أصدروبعل هو الوحيد الذي اهتمّ بهذه الإمبراطورية التي حاول تزويدها بالمؤسّسات الضّرورية لدوامها، الذي استمرّ حوالي ربع قرن (Gilbert Charles P., 1960, P. 100)، إذ بعد احتلال مدينة صاغثوم سنة 219 ق.م من طرف حنبعل، اندلعت الحرب البونيقية الثانية (218 - 201 ق.م)، لأنّ المدينة كانت حليفة لروما بناءً على ما تشير إليه النّصوص، لكن لا ندري متى أقيم هذا التّحالف، إن كان قبل معاهدة الإيبرو أم بعدها؟ والمعروف أنّ روما وجهت سفرتين إلى إسبانيا إحداهما سنة 231 ق.م على إثر شكوى تقدّم بها الفوسيون على عهد هاميلكار الذي عرف كيف يقنع ذلك الوفد، أمّا المرّة الثانية، فكانت على عهد أصدروبعل، انتهت بعقد معاهدة الإيبرو التي تطلق يد البونيقين إلى الجنوب من الإيبرو وتحظر عليهم أيّ عمل عسكري، إلى الشمال من النّهر المذكور.

وكان من نتائج قيام هذه الحرب رغم الانتصارات التي حقّقها حنبعل في المرحلة الأولى من (218 - 212 ق.م)، أن فقدت قرطاجة إمبراطوريتها الإسبانية.

إذ بداية من السنة الأخيرة، تنقلب الأمور على حنبعل الذي لم تصله النجدة من قرطاجة ولا من حليفه المقدوني، فبدأ في التّراجع، وكان إرسال روما بوبيليوس كورنيليوس سكيبيو إلى إسبانيا سنة 210 ق.م واستيلاؤه سنة 209 ق.م على قرطاجة إيذاناً بنهاية هذه الإمبراطورية التي وقعت فيها قادس آخر معاقل آل برقة في إسبانيا في يد سكيبيو سنة 205 ق.م (حارش، م، 1959، ص. 68 - 69).



نقلا عن: Decret François, Carthage ou l'empire de la mer.

بيبليوغرافيا:

أولا- المصادر:

- المصادر باللغة الفرنسية:

- Appien, (2002), Histoire Romaine, tra. Par Paul Goukowsky, les belles lettres, Paris.
- Corneluis Ne pos, (1841), Amilcar, traduction de M. Kermoyson, édition Nisard.
- Diodore de Sicille, (1834- 1837), Bibliothèque historique universelle, trad. Par A F, Milot, imprimerie royale, Paris.
- Justin, (Marcus Junianus), Histoire universelle, tra. Par Jules Pierrot, éd. C. L. F.
- Polybe, (1970), Histoire Romaine, traduit par denis Rossel, éd. Gallimard, Paris.

• Strabon, (1867- 1870), Géographie (4 Volumes), traduit par Tardieu, éd. Hachette, Paris.

• Tite Live, (1930), Histoire Romaine, traduit par Verger, éd. Panckoucke, Paris.

ثانيا- المراجع:

(1) المؤلفات (الكتب) باللغة العربية:

(أ) المؤلفات العربية:

• تسيركين (يولي بروكوفيتش)، (1987)، الحضارة الفينيقية في إسبانيا، ترجمة د. يوسف أبي فاضل، دار جرس برس، بيروت.

• تويني (أرنولد)، (1985)، تاريخ البشرية، الجزء الأول، نقله إلى العربية د. نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت.

• جورج مصروعة، (1959- 1960)، هنيعل، جزآن، مطابع منا سيماء، بيروت.

• جوليآن (شارل أندري)، (1969)، تاريخ إفريقيا الشمالية، جزآن، تعريب محمد مزالبي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس.

• حارش (محمد الهادي)، (1995)، ال تاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري (منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي)، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر.

• صفا (محمد الله)، (1987)، هانيال، دار التفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

• عمد (الصغير غانم)، (2003)، معالم التواجد الفينيقي البونيقي في الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر، الجزائر.

ب) المؤلفات (الكتب) باللغة الأجنبية:

• Albert Malet et Jules Issac, Histoire Romaine, éd. Hachette, Paris.

• Almagrobash (M.), L'influence Grecque sur le Monde ibérique, dans le rayonnement des civilisation Grecque et Romaine sur les cultures périphériques, Paris.

• Bernard- Combet (F.), (1960), Les guerres puniques, P. U. F., Paris.

• Beschouch (Azdine), (1993), La légende de Carthage, Gallimard, Paris.

• Bordet (M.), Précis de l'histoire Romaine, éd. Armand Colin, Paris.

• Carcopino (G.), Grandeurs et Faiblesses d'Hannibal, dans profils des conquérants, éd. Flammarion, Paris.

• Decret (F.), Carthage ou l'empire de la mer, éd. (Paris 1977).

- Fathi (Abdelkader.), (2008), **Dans le Temple de l'histoire**, éd. Hibr, Alger.
- Gsell (St.), (1913), **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord**, (8 Vols), éd. Hachette, Paris.
- Guirand et Lecour-Gayet (G.), (1885), **Histoire Romaine depuis la Fondation de Rome jusqu'à l'invasion des berbères**, Paris.
- Mommsen (Ch.), (1863- 1872), **Histoire Romaine**, (8 vols.), trad. C. A. Alexandre, éd. A. L. Helord (Lib. A. Franck), Paris.
- Picard (Gilbert- Charles), (1960), **Hannibal**, Librairie Hachette, Paris.
- Salluste, (C. C.), (1966), **La guerre de Jugurtha**, tra. Richard (F.), éd. Garnier, Paris.
- Sir Gavin de Beer, **Alps and elephants**, 1955.
- Warmington (G. H.), (1961), **Histoire et civilisation de Carthage**, trad. De l'anglais, Paris.

ثالثا: الدوريات (المقالات):

- باللغة الأجنبية:

- ❖ Carcopino (J.), "Le traité d'Hasdrubal et la responsabilité de la deuxième guerre punique", revue des études anciennes, 1953.
- ❖ Picard (G. Ch.), "Le traité romano-barcide de 226 Av- J.c" dans Mélanges Jérôme Carcopino.